القمر بين نازك الملائكة ونزار قباني

د. أحمد زياد محبك *

شغل القمر الناس، وملأ قلوبهم شغفاً بجماله، وتغنى به الشعراء والعشاق، وشبهوا به الحبيبة في السمو والجمال والبعد، وبثوه شكواهم فناجوه، وامتلأت دواوين الشعر العربي بذكره، ولكن على الرغم من ذلك كله لم يخصه أحد بقصيدة خالصة له، عدا قصيدة يتيمة للشاعر الأندلسي ابن خفاجة، بخلاف الشعر الحديث، إذ بدأ ظهور قصائد خاصة بالقمر، وخالصة له، ومن هذه القصائد قصيدة متميزة للشاعرة نازك الملائكة (١٩٢٣-٢٠٠٧)، وقد نشرتها في العدد الأول من مجلة الآداب البيروتية لشهر كانون الثاني من عام ١٩٥٥، وعنوانها: «صلاة للقمر»، وفي هذه القصيدة تنظر الشاعرة إلى القمر بعيداً عن أي غرض، إذ تقدره لما فيه من جمال، وهو تقدير خالص نقي، غايته الجمال في حد ذاته.

نازك الملائكة

كأسُ حليب مثلّج ترفِ   أم جدولٌ سائل من الصدف؟
أم غسَقٌ أبيض يسيل عليَ   خدود ليلٍ معطّر السدَف
أم حُقّ عطر ملوّن خضل   يقطر شهداً لكل مغترف
أم أنت خد مزنبق أرج   ينعس فوق الأعشاب والسعف
يا فضةً كالضياء ليّنة   يا لون حبي القديم يا شغفي

ما أنت؟ يا دورق الضياء ويا   كواكباً في الظلام منصهره
يا قُبلاً سوسنية سَكبَتْ   شهداً مصفّى في ليلة عطره
يا مخبأ للجمال يا حُزَماً   من زنبق في السماء منعصره
ويا شفاهاً من الضياء دنت   تمسح وجهَ العرائش النضره
يا بركة العطر والنعومة يا   سلة فلّ في الأفق منحدره

يا زورق العاشقين تحملهم ... عبر بحار الأحلام والكسل
على جناح مريَّش يقظ ... يفرش درب الغرام بالأمل
يا منبعاً يسكب النعاس على ... ما أرّقته الأشواق من مُقل
يا ساقيَ الأعين الرقاق رؤىً ... يا نبع نوم مخدِّر ثمل
يا إصبعاً يلمس الجراح و يا ... مُبعثر الأغنيات والقُبل

جزيرة في الدجى معلقة ... فجرية اللون والتباشير
طافيةٌ فوق جدولٍ عَبق ... مكوكب الشاطئين مسحور
تجمد الضوء عند شاطئها ... نبع حرير وكنز بلّور
يا توبة القبح يا شراع هوىً ... ملوّن ناعم الأسارير
يا ندم الليل والظلام ويا ... كفّارة الغيم والأعاصير

أذبْ شظايا أشعّة ورؤىً ... في الليل واغمر سطوحنا فضّه
وانفضْ جناحيك في الفضاء ... يسل لونُ جناح الفراشة الغضّه
لولاك لم ترقص الظلال ... ولم تبرد كؤوس الزنابق البضّه
غزلت أحلامنا وأرضعتنا ... ضياؤك العذب ومضة ومضه
ياكوّة الفجر في دجى تعبٍ ... يا مُطعم الياسمين في الروضه

إلبث كما أنتَ عالماً عجزت ... أرواحنا أن تعي خفاياه
يا ناسجَ الشعر يا بقيتهُ ... في عالم أظلمتْ مراياه
أيّ نشيد لم ينبجس فرَحاً ... وأنت تفتّرّ في ثناياه؟
أنت منَحت الغناء لذّته ... يا نبضة الوزن في حناياه
فابقَ وراء الحياة أخيلةً ... الشعر فيها والحب والله

جزيرة في الدجى معلقة ... فجرية اللون والتباشير
طافيةٌ فوق جدولٍ عَبق ... مكوكب الشاطئين مسحور
تجمد الضوء عند شاطئها ... نبع حرير وكنز بلّور
يا توبة القبح يا شراع هوىً ... ملوّن ناعم الأسارير
يا ندم الليل والظلام ويا ... كفّارة الغيم والأعاصير
أذبْ شظايا أشعّة ورؤىً ... في الليل واغمر سطوحنا فضّه
وانفضْ جناحيك في الفضاء يسلْ ... لونُ جناح الفراشة الغضّه
لولاك لم ترقص الظلال ولم ... تبرد كؤوس الزنابق البضّه
غزلت أحلامنا وأرضعتنا ... ضياؤك العذب ومضة ومضه
يا كوّة الفجر في دجى تعب ... يا مُطعم الياسمين في الروضه
إلبث كما أنتَ عالماً عجزتْ ... أرواحنا أن تعي خفاياه
يا ناسجَ الشعر يا بقيتهُ ... في عالم أظلمتْ مراياه
أيّ نشيد لم ينبجس فرَحاً ... وأنت تفتّرّ في ثناياه؟
أنت منَحت الغناء لذّته ... يا نبضة الوزن في حناياه
فابقَ وراء الحياة أخيلةً ... الشعر فيها والحب والله

والقصيدة تنداح هادئة مثل ضوء القمر، في مقاطع، يتألف فيها كل مقطع من خمسة أبيات موحدة حرف الروي، وإيقاع القصيدة متميز، فهي مبنية على المنسرح، وهو بحر قليل الورود في الشعر العربي، ولعل الشاعرة اختارته لندرته وتميزه لتعالج به هذا الموضوع الفريد والمتميز.

والشاعرة تقف من القمر موقفاً سامياً، وفي هذا الموقف لا تثير لوعة، ولا تعبر عن عاطفة، ولا تنتقد واقعاً، إنما غايتها تنبيه الذهن والحواس كلها إلى جمال القمر، فالقصيدة تقوم على تمجيد الجمال المحض، وتقديره، بل تقديسه، وهو الجمال النقي البريء، غير المرتبط بهدف أو غاية من مجتمع أو سياسة أو اقتصاد، فالجمال هو الحاضر، ولا طغيان للفكر أو الحكمة، ولا اجتياح للعاطفة أو المشاعر.

ولذلك كان العنوان: «صلاة للقمر»، وفي الصلاة ما يؤكد معنى التقدير المحض، والتقديس والسمو، وليس المقصود هنا من الصلاة معناها الديني المحدود، إنما المقصود مطلق الصلاة، التي هي صلة وتواصل، وإن كانت الكلمة ما تزال تحمل هالات من معانيها الدينية ولا يمكن تجريدها منها، وهذه الصلاة خالصة

للقمر، يؤكد ذلك اللام، وهي دالة على التوجه، كما تدل على التملك، وهو تملك القمر لهذه الصلاة، فهي مخصوصة به، وهي لأجله وحده، وجاءت كلمة صلاة نكرة لتدل على أنها صلاة خاصة بالقمر، تعرف من خلال إلحاقها به، ولو جاءت معرفة (الصلاة) لكانت الصلاة المعهودة لدى المؤمنين والمعروفة، ولذلك فالصلاة هنا هي خاصة بالقمر، ومفهوم من كونها عنواناً للقصيدة أنها قصيدة للقمر، ولكن العنوان جاء على سبيل الاستعارة التصريحية، ليمنح العنوان شعريته، ولو جاء قصيدة للقمر لكان فجاً مباشراً ولا شعرية فيه، والشاعرة تقدم للقمر شيئاً مقدساً جميلاً هو الكلمة، والقمر في العنوان وفي القصيدة هو القمر نفسه ولا شيء سواه، فهو في العنوان معرف بـ «ال» العهدية، أي هو القمر المعهود لدى الناس والمعروف عندهم، ولكن الشاعرة تقدم له صلاة خاصة به ومختلفة.

وقد غيرت الشاعرة في عنوان القصيدة عندما أعادت نشرها في الديوان، فجعلته «أغنية»، ولعل أحداً عاتبها على استعمال كلمة صلاة، لما لها من بعد ديني، وما تثيره من شعور بالقدسية، أو لعل وازعها الديني أثار لديها شيئاً من هذا التحفظ، فجعلته «أغنية»، وهي أكثر دلالة على «قصيدة» وأبعد عن مفهوم «صلاة»، وهي في هذا الوضوح والقرب الدلالي أقل شعرية، ولكنها تظل أغنية خاصة بالقمر، وهي مرتبطة بقيمة ومعنى، أكثر من ارتباطها بمادة أو حس. وبذلك يتناسب العنوان وبنية القصيدة التي هي غناء خالص للقمر، وتمجيد محض لجماله، بعيداً عن أي هدف أو غاية أخرى، ويؤكد هذا المقطع الأخير من القصيدة، وفيه تريد الشاعرة للقمر أن يظل مبعثاً للإيحاء، وموئلاً للجمال، وأن يبقى خيالاً لا يطال، ولغزاً لا يحل، كي يزود الإنسان بقيم الشعر والجمال والفن، فقد طغى القبح في العالم، وبذلك يكتسب القمر في القصيدة دلالات غنية وأبعاداً واسعة، إذ يغدو رمزاً للبراءة والنقاء والجمال، بل رمزاً للروح والخيال والفن والشعر.

والقصيدة تذكر ثلاثة معان في المقطع الأخير، تختتم بها القصيدة، وهي الحب والشعر والله، والمقصود بالحب معناه الكلي الشامل الذي يعني حب الله والوطن والمرأة أماً وزوجة وأختاً وابنة، وحب العمل والحياة والكون، ولا تنفصل عن هذه القيمة قيمة الشعر، الذي يوحي بالعاطفة والعطاء والمنح والجمال والفن السامي بعيداً عن الحس والمادة والمال والتجارة والكسب والأخذ، ويتوج هذه المعاني معنى أشمل وأعظم، هو المصدر الأول لكل المعاني والقيم والأخلاق ولكل معاني الجمال والسمو، وهو الله، وهنا يترسخ الوعي بالكون كله والوجود، والشعور به من خلال قيمة عليا، بل هي الأعلى، وهي الختام في القصيدة، والكلمة الأخيرة فيها، ولكنها في الحقيقة هي الكلمة الأولى، وهي المنبع الضوئي الذي يشع على القصيدة كلها في ختامها ليضيئها بنور الخلق والكون والجمال، ولتتأكد ثانية قدسية النظرة إلى العالم، والقمر جزء منه، وبذلك فما هذه الصلاة الخاصة بالقمر إلا صلاة للكون كله وللجمال والقيم والمعاني، ولذلك كانت القصيدة تتألق من خلال صور من مثل: سلة الفل، ودورق العطر، وكأس حليب مثلج مترف، وبركة العطر، وجزيرة النور، وحزمة زنبق، وكواكب منصهرة، وكلها صور مشرقة متألقة تثير الشعور بالبهجة والجمال والتألق، وتشد الإنسان إلى بهاء الكون كله، وجماله الراقي بعيداً عن القبح والزوابع والعواصف والغيوم، وفي ختام هذا الوعي بجمال الكون تتجلى قيم الحب والشعر، وبعد تلك الجولة في بهاء العالم وجماله يكون الخلوص إلى مبدع هذا العالم ومصدره وإدراك لوجوده والشعور به والتوجه إليه وهو الذات الإلهية، في لفظ الختام» الله»، ولعل في هذا ما يؤكد انسجام العنوان «صلاة» مع البنية العامة للقصيدة، وهي بنية شفافة، رقيقة، تدل على نفس مؤمنة تحب الجمال وتعشقه، وترى من خلاله الله، وهذه نزعة صوفية مؤمنة، عبرت عنها الشاعرة بأسلوب غير مباشر.

تنوع القوافي هو دليل على تنوع تجليات الجمال في الكون، وانتظام النص في بحر، هو جزء من انتظام الكون كله في أفلاكه وكائناته

إن القصيدة قائمة على قيمة الجمال الصافي، وهي ترقى بهذه القيمة نحو قيمة أخرى أعلى، وهي السامي والجليل متجلياً في الكون الجميل، وقيم الجمال والحب والفن، ودالاً في الختام على مصدر هذه القيم كلها ونبعها الأول، وهو الله.

وتنوع القوافي هو دليل على تنوع تجليات الجمال في الكون، وانتظام النص في بحر، هو جزء من انتظام الكون كله في أفلاكه وكائناته، واختيار بحر نادر الاستعمال، وهو بحر المنسرح، دليل ندرة مثل هذا الموقف الجمالي السامي.

ولا يغيب الجو الديني عن النص، بل هو مفعم بالمعاني والمشاعر الدينية، إذ تظهر فيه الألفاظ التالية: صلاة، توبة، كفارة، ندم، والقصيدة تتالى في مقاطع ستة، وهي أشبه بنظرات إلى القمر، فهي نظرات تترى، الواحدة منها تتلو الأخرى، وفي كل نظرة تتجلى معان جديدة، فالمعاني تتوالد، ليكون التتويج في المقطع الأخير، حيث تظهر أرقى المعاني وأسماها، وأكثرها جلالة وقدسية.

والنص لا يقوم على شيء من الصراع أو التناقض أو الثنائيات، فهذا طبيعي، لأنه يقوم على الجمال السامي، بل إن القبح ليتوب، والمرض يشفى، لأن جمال القمر هادئ، والجو هو جو صلاة وابتهال، وفي مثل هذا الجو تسود الطمأنينة، ويشيع الشعور بالأمان، فالجو هادئ مطمئن.

وخطاب الشاعرة القمر في ختام القصيدة قائلة: «البث كما أنت عالماً عجزت أرواحنا أن تعي خفاياه»، يوحي بشيء من الشك، فكأنها تخشى أن يُكتشَف القمر علمياً وأن تُعْرَف حقيقتُه، فيتحول من رمز للحب والجمال إلى محض مادة علمية للدراسة والتمحيص، وفي هذا الشك توجس وخيفة، وكأنها تخشى أن ينصرف الناس عن جمال القمر لانشغالهم بعالم المادة، وهذا الموقف لا يعادي البحث والعلم، ولا يرفض المعرفة والاكتشاف، هو موقف يسعى إلى حفظ الجمال، بوصفه قيمة إنسانية، لأن الحفاظ على القمر يعني الحفاظ

على مجلى للجمال يتملاه الإنسان، ويحس به، ويستشعر من خلاله جمال الكون، ويحس بإنسانيته، ويعي ذاته، فهذا الموقف هو دليل الحرص على الإنسان، والخوف على قيمه ومشاعره، ورغبة في أن يبقى في هذا الكون ما هو جميل، بعد أن طغى على العالم اللهاث وراء المادة، والانصراف عن الحب والشعر والله، والشاعرة تريد للإنسان أن يظل راعياً لهذه القيم ومحافظاً عليها، ليظل محافظاً على ذاته بوصفه إنساناً لا مجرد جسد يسعى وراء حاجات مادية فيصبح جزءاً منها، فيتحول إلى شيء ويفقد ذاته وقيمته.

إن القمر هنا مرآة، تريد القصيدة لها أن تظل نقية صافية جميلة، ينظر إليها الإنسان، ليرى فيها ذاته، وتكون صورة هذه الذات الإنسانية بهية راقية متألقة، مثل القمر في البهاء والجمال والسمو، في الوقت الذي أصبحت فيه المرايا في الواقع معتمة صدئة، ولذلك تقول مخاطبة القمر:

يا ناسج الشعر يا بقيته في عالم أظلمت مراياه

لقد حشدت الشاعرة من التشابيه والصور كل ما هو مترف ورقيق وسام وأسندته إلى القمر، وأخذت تناجيه وتخاطبه، كأنه سمير وحشتها، وأنيس وحدتها، وهي في أمريكا، وهي تتوجه إليه بالخطاب مباشرة، وتناديه من أعماق ذاتها، فهي تسأل غير مرة: ما أنت؟ وغير مرة تطلب منه قائلة: انفض جناحيك، أذب شظايا أشعة، واغمر سطوحنا فضة، والبث كما أنت، وهي تناديه مرات كثيرة لا تعدّ بـ: «يا»، وكأنها تتوجه بخطاب إلى كائن أمامها، تخاطبه وتناجيه، وهي عندما تطلب منه أن يبقى وأن يلبث وأن يغمر وأن ينفض جناحيه تدل على أنثى تخاطب رجلاً تريد منه أهم ما تريده المرأة من الرجل: وهو الثبات والوفاء وعدم التغير وأن يغمرها بعطفه وأن يفيض عليها من حبه، وفي هذا النداء والخطاب والتوجه ما يمنح القصيدة دفئاً وحناناً ويدل على علاقة تواصلية رقيقة وراقية بين الشاعرة المرأة والقمر الرجل. ولكن على الرغم من

نزار قباني

هذا التواصل عن بعد والخطاب الأنثوي الرقيق لا يمكن الزعم بأن القمر هنا رمز للرجل، وما الخطاب إلا خطاب للقمر المعهود، ولكن في أعماق هذا الخطاب أنثى رقيقة راقية، وهي لم تخاطبه في النص على الإطلاق بـ» يا قمراً» مثلاً، ولم يرد لفظ القمر في النص أبداً، وربما كان في هذا دليل على حياء وخفر.

والشاعرة تنظر إلى القمر وهي في أمريكا، وهي نظرة الشرقي الذي يقدر الأخلاق والقيم والدين، وهو غريب في مجتمع تطغى فيه المادة وتسيطر عليه النفعية، وإن كانت لا تغيب عنه القيم أيضاً، ولكنها بالنسبة إلى الغريب تبدو غائبة، أو ليست كالقيم التي عرفها في وطنه، وما هذا التعلق بالقمر إلا دليل على تعلق الغريب بقيمه الأصيلة أمام قيم جديدة، ولجوء التائه في بلاد الغربة إلى الوطن. إن القصيدة تعبير عن موقف من القمر مثالي، يقوم على تمجيد القمر تمجيداً خالصاً عن أي غرض، واعتباره مصدراً للجمال الراقي السامي، والرغبة في أن يظل كذلك بعيداً عن الأهواء والأغراض الدنيوية.

وخلاف نازك الملائكة يتخذ الشاعر نزار قباني (١٩٢٣- ١٩٩٩) من القمر موقفاً مغايراً، ففي قصيدة له عنوانها:» خبز وحشيش وقمر» (آذار ١٩٥٥) ينتقد الواقع انتقاداً حاداً ويربط مظاهر الفقر والتخلف والجهل والقمع بالقمر، وفيها يقول(١):

عندما يولد في الشرق القمر
فالسطوح البيض تغفو
تحت أكداس الزهر
يترك الناس الحوانيت ويمضون زمر
لملاقاة القمر
يحملون الخبز والحاكي إلى رأس الجبل
ومعدات الخدر
ويبيعون ويشرون خيال وصور
ويموتون إذا عاش القمر

×

ما الذي يفعله قرص ضياء
ببلادي ببلاد الأنبياء
وبلاد البسطاء
ماضغي التبغ وتجار الخدر
ما الذي يفعله فينا القمر
فنضيع الكبرياء
ونعيش لنستجدي السماء
ما الذي عند السماء
لكسالى ضعفاء
يستحيلون إلى موتى إذا عاش القمر
ويهزون قبور الأولياء
علها ترزقهم رزاً وأطفالاً قبور الأولياء
ويمدون السجاجيد الأنيقات الطرر
يتسلون بأفيون تسميه قدر
وقضاء
في بلادي في بلاد البسطاء.

×

أي ضعف وانحلال
يتولانا إذا الضوء تدفق
فالسجاجيد وآلاف السلال
وقداح الشاي والأطفال تحتل التلال
في بلادي حيث يبكي الساذجون
ويعيشون على الضوء الذي لا يبصرون
في بلادي حيث يحيا الناس من دون عيون
حيث يبكي الساذجون
ويصلون ويزنون ويحيون اتكال
منذ أن كانوا ...يعيشون اتكال
وينادون الهلال:
« يا هلال أيها النبع الذي يمطر ماس
وحشيشاً ونعاس
أيها الرب الرخامي المعلق
أيها الشيء الذي ليس يصدق».
دمت للشرق لنا
عنقود ماس
للملايين التي قد عطلت فيها الحواس

في ليالي الشرق لما يبلغ البدر تمامه
يتعرى الشرق من كل كرامه ونضال
فالملايين التي تركض من غير نعال
والتي تؤمن في أربع زوجات
وفي يوم القيامه
الملايين التي لا تلتقي بالخبز
إلا في الخيال
والتي تسكن في الليل بيوتاً من سعال
أبداً ما عرفت شكل الدواء
تتردى جثثاً تحت الضياء
في بلادي حيث يبكي الأغبياء
ويموتون بكاء
كلما طالعهم وجه الهلال
ويزيدون بكاء
كلما حركهم عود ذليل و«ليالي»
ذلك الموت الذي ندعوه في الشرق
«ليالي» وغناء.
في بلادي في بلاد البسطاء
حيث نجتر التواشيح الطويله
ذلك السل الذي يفتك بالشرق
التواشيح الطويله
شرقنا المجتر تاريخاً وأحلاماً كسوله
وخرافات خوالي
شرقنا الباحث عن كل بطوله
في أبي زيد الهلالي.

وعنوان القصيدة يدل عليها مباشرة دلالة واضحة ولا إيحاء فيه ولا شعرية، فهو يتألف من ثلاث كلمات، هي: «خبز وحشيش وقمر»، و الكلمات حسية مادية، وهي نكرات، والتنكير يدل على أن المعنيّ بها شيء مخصوص غير ما هو معهود منها، فالخبز هنا هو خبز الفقراء المحرومين الذين لا يكادون يحصلونه، والحشيش هو المادة المخدرة، وليس الحشيش الذي ترعاه الأغنام، والقمر هو القمر الذي يسهر الفقراء والبسطاء في ظله متعاطين المخدرات هرباً من فقرهم وجوعهم والظلم الذي يعانون منه، والكلمات الثلاث معطوف بعضها على بعضها الآخر، مما يدل على اجتماعها في آن، والعنوان يدل على مضمون القصيدة ويكشفه ويحدده بدقة، ولا تضيف القصيدة جديداً إلى مدلول العنوان ولا تغير فيه، فالعلاقة بين العنوان والقصيدة محدودة منتهية.

ولعل ما يميز القصيدة هو جرأتها المباشرة والحادة في انتقاد الواقع، وهو واقع الناس البسطاء الفقراء، والشاعر يقسو عليهم، ويحملهم المسؤولية، ويتهمهم بالنفاق، إذ يصلون ويزنون، ويتهمهم بسوء فهم الدين، إذ يهزون قبور الأولياء بالدعاء، ويدين كسلهم وغياب وعيهم، إذ يهربون من فقرهم وجوعهم إلى ليالي الأنس والسهر في ضوء القمر، ويتعاطون المخدرات، أو يرددون الأغاني، ويحلمون بخلاص على يد بطل فرد موهوم منتظر مثل أبي زيد الهلالي، ويشير إلى فقرهم وجوعهم وعدم قدرتهم على تحصيل رغيف الخبز، ويشير إلى غياب وعيهم وجهلهم، فهم يصلون للقمر وينتظرون منه الخلاص.

والشاعر يقسو على الفقراء قسوة بالغة، ولا يعطف عليهم بشيء، بل ينكر عليهم القليل من التسلية الذي يحصلون عليه، ولا يعلل سبب فقرهم، ولا يشير إلى الأغنياء المستغلين، ولا إلى الحكام الطغاة المستبدين، فهؤلاء وأولئك هم سبب تلك المظاهر، وهو ينكر على الفقراء البسطاء قدراً قليلاً من الأنس في ضوء القمر، وينسى لهو الطبقة الغنية ومجونها في الأقبية المعتمة تحت الأضواء الخافتة، وينكر علي الفقراء كؤوس الشاي والسجاجيد يمدونها على الأسطح تحت ضوء القمر، ولا ينكر على الأغنياء كؤوس الخمر والموائد الحمراء، وينسب إلى الفقراء كلاماً لا يقولونه، إذ يزعم أنهم يصلون للقمر وينادونه يا ربّاً من رخام، وهذا ليس من كلام العامة، ولا من تراثهم الشعبي في شيء، ولا هو وارد على ألسنتهم، فالمؤمن يتوجه إلى الله بالدعاء حين يرى هلال شهر جديد، ويسأل الله تعالى أن يجعله شهر خير وبركة، فهو يتوجه إلى رب القمر وخالقه، لا إلى القمر، وأكثر الناس بساطة وجهلاً وسذاجة لا يقول بشيء مما يقوله نزار ألبتة، فالعامة عندما ترى القمر تقول:» اللهم اجعله شهر خير علينا وعلى الأمة كلها»، ولا يقول أحد بربوبيته، والعامة عندما تزور قبور الأولياء لا تطلب منها الرزق أو الأولاد أو تحقيق المراد، بل العامة تتوجه إلى الله تعالى أمام قبر الولي، وتسأل الله تعالى الرزق والخير بما لهذا الولي من كرامة ومكانة ومنزلة عند الله، فالقصيدة توظف الفهم الخاطئ للدين عند شريحة محدودة من العامة لتتهم المجتمع كله، ويلاحظ غياب القيم الروحية عن القصيدة وغياب أي قيمة أو معنى، سوى الانتقاد الحاد الجريء.

إن القصيدة تستمد قيمتها من الجرأة والقسوة اللتين تميزت بهما، وهما ميزتان أخلاقيتان وغير فنيتين وغير مبررتين، ولا تغنيان القصيدة في شيء، ولا تضيفان إلى رصيدها الفني، وهي مجرد هجاء مر وساخر، فالقصيدة تقوم على المباشرة والخطاب الصريح وتسمية الأمور بأسمائها، ولغتها تقريرية، وهي واضحة الوضوح كله، ولا تثير شيئاً من خيال، ولا تترك قدراً من إيحاء، وتكفي قراءتها الأولى لتعطي كل شيء، فلا شيء من رمز أو غموض.

والقصيدة تقدم صورة للحياة الشعبية قوامها كل ما هو قبيح ومتخلف ومنحط، وتتمثل في عادات بعضها صحيح وبعضها ليس كذلك، ومنها إشارات إلى الحاكي وموال: ياليل، وحكايات أبي زيد الهلالي، بالإضافة للصلاة للقمر ولقبور الأولياء والتواكل والكسل وانتظار السماء أن تمطر عليهم الرزق. لقد حشد نزار في قصيدته كثيراً أشكال القبح الاجتماعي وأسندها إلى الفقراء، ومن هذه الأشكال: معدات الخدر، ماضغو التبغ وتجار الخدر، نضيع الكبرياء، نستجدي السماء، كسالى ضعفاء، يتسلون بأفيون نسميه قدر وقضاء، يصلون ويزنون اتكال، للملايين التي عطلت فيها الحواس، يتعرى الشرق من كل كرامة ونضال. والقصيدة تلقى القبول من العامة وأوساط المثقفين من غير شك، لشهرة نزار، ولسهولة القصيدة، ووضوحها، وبساطة لغتها، ولإيقاعها الواضح، ولأنها ترضي ما بأنفسهم من نقمة، وتفرغ ما بأنفسهم من شحنة، والناس ينجذبون إلى الجرأة في القول، ويسرون بالانتقاد الحاد، ويرضون عنه، لأنهم يجدون فيه ترويحاً عن أنفسهم، وتعبيراً عن مشكلاتهم.

والقصيدة مبنية على تفعيلة الرمل (فاعلاتن) وهي تفعيلة سهلة جداً رشيقة كثيرة الحركات والجوازات، وهو يكررها على السطر الواحد عدداً غير محدد من المرات، وغالباً ما ينتهي السطر عنده بالعروض (فاعلن)، وأحياناً ينتهي بـ(فعلن) فكأنه يكتب على البحر، لا على التفعيلة، إذ ينتهي بحر الرمل بالعروض (فاعلن) أو (فاعلن) ولا ينتهي بفاعلاتن،مما يدل على رسوخ الإيقاع

العروضي في نفس الشاعر، ويؤكد حسه الموسيقي المرهف، وينوع في القوافي، وهو ما أتاح له قدراً كبيراً من الحرية والعفوية والبساطة في معالجة الموضوع. والقصيدة رشيقة سريعة الإيقاع، ينساق بعضها في إثر بعضها الآخر، فالبناء فيها عفوي جداً، وهو بناء مسطح، يقوم على التكرار، لا على التنامي أو التطور، وكأنها محض تداعيات حرة، وهي تمتد في انديناح، وتستمر في بناء استرسالي غنائي، وتبدو ممتدة باطراد، ولن تكون لها نهاية، ولذلك تأتي نهايتها مفاجئة مقطوعة، ولا تضيف جديداً إلى بنائها.

ولا تقدم القصيدة إلا قليلاً من الصور التقليدية جداً والبالية، من مثل: "يولد في الشرق القمر"، "يبيعون ويشرون خيال"، "قرص ضياء"، "لنستجدي السماء"، "بيوتاً من سعال"، "نجتر التواشيح الطويلة"، "ذلك السل ...التواشيح الطويلة"، "أحلاماً كسوله"، ومثل تلك الصور المكرورة فقدت تألقها، وغدت تعبيرات لغوية جاهزة، وتبقى ثمة بعض الصور القليلة الجديدة، وقد وضعها الشاعر على لسان العامة، إذ جعلهم ينادون الهلال قائلين:

«يا هلال
أيها النبع الذي يمطر ماس
وحشيشاً ونعاس
أيها الرب الرخامي المعلق
أيها الشيء الذي ليس يصدق»

وذلك الكلام يتضمن صوراً جديدة مدهشة، ولكن العامة لا تنطق بمثله، لا في الشكل ولا في المضمون، ولا في المبنى ولا في المعنى، وإن هي إلا صور تعبر عن خيال الشاعر، وكان من الحري به أن يبدع مثلها في سياق كلامه هو في القصيدة، لا أن يضعها على لسان العامة، ويجعلها معبرة عن صوتهم، وما هي كذلك.

والشاعر يتكلم بضمير المتكلم متحدثاً في المقطع الأول من القصيدة عن الناس بضمير الغائب، فهم يحملون الخبز والحاكي، وهم يموتون إذا عاش القمر، فكأن الشاعر يقف بمعزل عن الناس ومنأى، وهو يرقبهم من بعيد ويصف حالهم، ويسند الأفعال مرتين إلى ضمير المتكلمين، فيقول: نضيع الكبرياء، ونعيش لنستجدي السماء، ولكنه يستمر حتى نهاية القصيدة في إسناد الأفعال كافة بما فيها من قبح إلى ضمير الغائبين، وكأنه بعيد عنهم، يرقبهم وبينه وبينهم مسافات، وهو ينتقدهم وهو بمنأى، ويغلب على القصيدة الفعل المضارع وهو يدل على حالة الشعب وما يعيش فيه من تخلف وجهل وكسل وتواكل، كما تدل على استمرار الحالة.

وهو يفتتح القصيدة بتسمية البلاد بأنها الشرق، ويختتم القصيدة بتسميتها شرقنا، وهو في الختام يصفها بصفات الجهل والتخلف، فيقول: «شرقنا المجتر تاريخاً وأحلاماً كسولة وخرافات خوالي، شرقنا الباحث عن كل بطولة، في أبي زيد الهلالي»، وما بين الافتتاح والاختتام ينسب البلاد إلى نفسه فيقول غير مرة: بلادي، وكأن الشاعر بذلك ينظر إلى بلاده من جهة الغرب، وهو خارجها، وهو حقيقة خارجها، فهو في لندن، فيسميها كما يسميها الأوربيون: الشرق والشرق الأوسط والشرق الأدنى، وهي تسميات استعمارية تنزع عن البلاد صفة الإسلام والعروبة، ولا تسميها بلاد العرب، أو الوطن العربي، ونزار ينساق وراء تلك التسمية عن غير قصد، ولكن انسياقه وراء التسمية يدل على تأثره اللاواعي بالمفهوم الغربي، وهو حين يصفها بـ بلادي، لا يذكر إلا صفات الجهل والتخلف والنفاق والفقر، وكأنه حين يصفها بهذه الصفات إنما يتألم أو يشفق وهو ينظر إليها من بعيد.

إن نظرة نزار تحمل الاتهام والإدانة، وتدل على قهر وألم وانفعال، بل تدل على اشمئزاز، وهو عنها بعيد، فهو يقف موقف المنتقد، الذي يدين ويتهم، ولا ينم موقفه عن شيء من التحريض أو الثورة، فهو لا يدعو إلى الرفض، ولا إلى التغيير، ولا إلى إثارة الوعي، ولا يفتح كوة من نور أو أمل، إنما يكتفي بالإدانة والاتهام. وهو يعلق التخلف كله على القمر، ويتهم الناس بأنهم يهربون إليه عن كسل أو جهل وتخلف، ولا يقدر حق الإنسان فقيراً أو غنياً بشيء من المتعة والتسلية والترفيه عن النفس، ولا يرى في القمر أي بعد جمالي، أو قيمة فنية، ولا يرى في السهر في ضوئه معنى من معاني تذوق الجمال، والإحساس بالمتعة والتسلية وهي حق مشروع،

وتبدو نظرة نزار قباني إلى القمر والشعب نظرة الشاب الغني الأرستقراطي المنغمس في المتع والمترف، الذي يحق له أن يأخذ من متع السهر والخمر والليالي الحمراء في ملاهي الغرب، في حين لا يحق للبسطاء الفقراء أن يسهروا على سطوح منازلهم تحت ضوء القمر وأن يشربوا كؤوس الشاي ويستمعوا إلى الأغنيات من الحاكي، في حين يحق له أن يسهر في الأقبية ويحتسي الخمر ويستمع إلى الغناء تصدح به مغنية، وهو ما تلخصه المقولة الشعبية: «ما هو حلال للغني حرام على الفقير»، وكل ما يأتي به الغني مبرر مشروع، وأقل ما يأتي به الفقير متهم مدان، فالنص لا يملك أي رؤية مستقبلية، هو مستغرق في الواقع، ولا يحمل أي فكرة عن حتمية التطور أو التغيير.

إن غاية النص أن ينعى وينتقد ويبالغ، ليلقى مزيداً من التأييد، وهو يعرف أن الجمهور يفرح بمن ينتقد بحدة، وأن الجمهور تدهشه الجرأة، لأنه يعبر عما في نفسه من سخط، ولو على حساب الرؤية، ولعل بعض القراء لن يقبلوا مثل هذا الكلام، لأنه يدين نزاراً، وهم به معجبون، وله متحمسون، ولكن هذا التحليل لهذه القصيدة يتوقف عندها فحسب، ولا يطال شعر نزار كله، ولا ينال شخصه، ولا بد من أن نسجل هنا إعجابنا بنزار وشعره، ولعلنا نوفيه بعض حقه في دراسة أخرى.

وكان عمر نزار عندما كتب القصيدة اثنتين وثلاثين سنة، وكذلك كان عمر نازك، فكلاهما من مواليد العام ١٩٢٣، وكانت نازك في ماديسون بأمريكا، وكان نزار في لندن، فكلاهما خارج الوطن، ونزار ينظر نظرة خارجية من الخارج، ونازك تنظر نظرة داخلية وهي في الخارج. وتبدو قصيدة نزار رداً على قصيدة نازك الملائكة، فقد نشرت في مجلة الآداب البيروتية في عدد شهر آذار من العام نفسه ١٩٥٥، أي بعد شهر فقط من نشر نازك الملائكة قصيدتها، فلعله كتبها بوحي منها، ورداً عليها.

المرجع
مجلة الآداب. بيروت. العدد ١. كانون الثاني. ١٩٥٥.
مجلة الآداب. بيروت. العدد ٣. آذار. ١٩٥٥.

*كاتب وأكاديمي من سوريا

الهوامش

نشرت أول مرة في مجلة الآداب ببيروت في العدد الثالث لآذار سنة ١٩٥٥